

ملحق ٨: ما الذي يجعل التاريخ الشفوي مختلفًا؟ جلسة: المصادر الشفوية مقابل المصادر المكتوبة

أليساندرو بورتيلي باحثٌ إيطالي وأستاذ فخري في الأدب الإنجليزي-الأميركي في جامعة روما لا سابينزا. إلا أنه اشتهر بكونه باحثًا عالميًا رائدًا في التاريخ الشفوي وقد نشر العديد من الكتب حول أبحاثه في التاريخ الشفوي في إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية. شكّل هذا المقال، الذي نُشرَ للمرّة الأولى في العام ١٩٧٩، تحديًا لنقاد التاريخ الشفوي بشكل مباشر على اعتبار أنّ الأمور «التي تجعل التاريخ الشفوي مختلفًا» - الرواية الشفوية، والشكل السردى والطابع الذاتي و«المصدقية المختلفة» للذاكرة، والعلاقة بين الراوي/ة والمُحاور/ة - يجب النظر إليها كنقاط قوّة بدلاً من نقاط ضعف، وهي موارد قيّمة وليست مشاكل^١.

١. شفوية المصادر المحكية

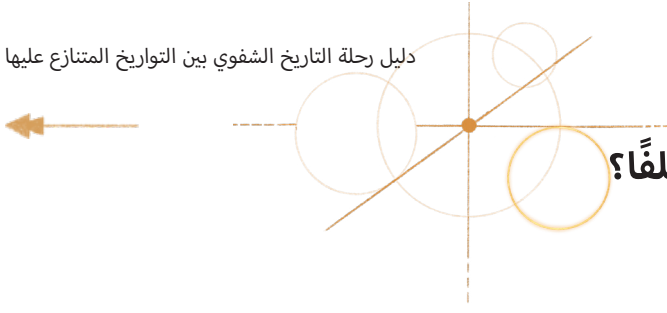
المصادر الشفوية هي مصادر شفوية بالفعل. لدى الباحثين/ات الاستعداد للاعتراف بأنّ المستند الفعلي هو الشريط المُسجّل [هو اليوم عبارة عن ملفّ رقمي]؛ لكنّ الجميع يلجؤون إلى العمل على النصوص (النسخة الخطيّة للتسجيل الشفوي)، ووحدها النصوص هي التي تُنشر. أحيانًا، يتمّ فعليًا إتلاف الشرائط [التسجيلات الرقمية]: كحالة رمزية لإتلاف الكلمة المحكية. فالنصّ يُحوّل العناصر السمعية إلى عناصر بصرية، ما يؤديّ حتمًا إلى تغييرات وتفسيرات.

لا حاجة لأن نُعيد ونُكرّر هنا أنّ الكتابة تُمثّل اللغة بشكل حصري تقريبًا عن طريق خصائص متقطّعة (أصوات الأحرف، والمقاطع اللفظية، والكلمات، والجمل). لكنّ نبرة الصوت ونطاق الصوت وإيقاع الخطاب الشعبي تحمل كلّها معنًى ضمنيًا ودلالات اجتماعية لا يمكن أن يعكسها النصّ المكتوب - إلّا في حال أُضيفت إليه النبرة، وهذا يؤديّ أحيانًا إلى صيغة مختلفة وغير واضحة. فقد تحمل العبارة نفسها معاني متناقضة، تبعًا لنبرة المتكلّم/ة، الأمر الذي يستحيل تجسيده بموضوعية في النصّ المكتوب، بل يمكن فقط وصفه بكلمات الكاتب/ة لهذا النصّ.

لكي يصبح النصّ مفهومًا، من الضروري عادةً إضافة علامات الوقف، وهي بالإجمال إضافة عشوائية نوعًا ما يقوم بها الكاتب/ة. نادرًا ما تتلاءم هذه العلامات مع إيقاع المتكلّم/ة ووقفاته/ا، فتحصر الخطاب ضمن قواعد لغوية ومنطقية لا تتسجم بالضرورة مع الحديث الأصلي الذي أدلى/ت به المتكلّم/ة. مدّة التوقّف وتوقيته يؤديان دورًا مهمًا في فهم معنى الخطاب. ينتقل الكثير من الرواة من نوع إيقاع إلى آخر ضمن المقابلة الواحدة، لأنّ مواقفهم تجاه المواضيع تتغيّر. بالطبع، يمكن ملاحظة هذا التحوّل عبر السمع وليس عبر القراءة. والأمر نفسه ينطبق على سرعة الكلام وتغيّراته خلال المقابلة. لا توجد قواعد تفسيرية ثابتة: فالإبطاء قد يعني التركيز على الموضوع أو ربّما قد يدلّ على الصعوبة، والإسراع قد يعني الرغبة بالمرور سريعًا على بعض النقاط، أو الألفة أو الارتياح. فالتغيّرات هي القاعدة السائدة في الكلام، بينما الانتظام هو الميزة الثابتة في الكتابة (وخصوصًا النصوص المطبوعة). نقوم بتجريد محتوى الكلام من الوجدانيات ليصبح المستند المكتوب مُترنًا وموضوعيًا. ويصحّ ذلك عند التحدّث مع أشخاص من الطبقة

١ أليساندرو بورتيلي، «ما الذي يجعل التاريخ الشفوي مختلفًا»، وفاة لويجي تراستولي وقصص أخرى: الشكل والمعنى في التاريخ الشفوي (مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩١).





ملحق ٨: ما الذي يجعل التاريخ الشفوي مختلفًا؟ جلسة: المصادر الشفوية مقابل المصادر المكتوبة

الشعبية (أي الرواة) قد يفتقرون إلى المصطلحات لكنّ كلامهم غنيٌّ من حيث النبرة ونطاق الصوت وطبقات الصوت مقارنةً بالمتكلمين/ات ذوي/ات التحصيل العلمي أو من تعلّموا التحدّث برتابة مثل النصّ المكتوب.

II. التاريخ الشفوي كقصة سردية

المصادر التاريخية الشفوية هي مصادر سردية.

تتضمّن بعض القصص السردية تغيّرات كبيرة في «سرعة» السرد، أي المعدّل بين مدّة الأحداث الموصوفة ومدّة سردها. فالمتحدّث/ة قد ت/يختصر بوضع كلمات أحداثًا امتدّت على فترة طويلة، أو قد ت/يتكلّم مُطوّلًا عن فترات زمنية وجيزة. هذه التغيّرات مهمّة، علمًا أنّنا لا نستطيع وضع قاعدة عامّة للتفسيرات: فالإطالة في الحديث عن فترة معيّنة قد يعني التركيز على أهميتها، لكنّه قد يكون أيضًا طريقة لتشتيت الانتباه عن نقاط أخرى أكثر حساسية. في جميع الحالات، هناك علاقة بين سرعة السرد ومقصد الراوي/ة.

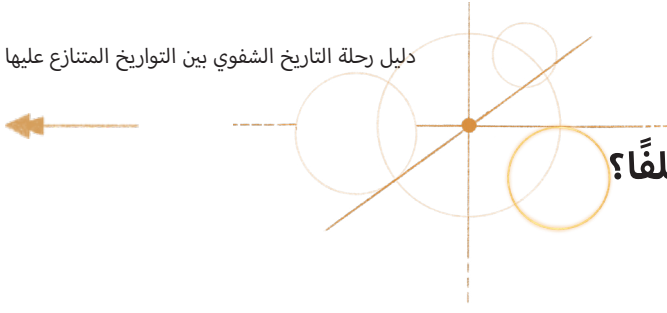
المصادر الشفوية من فئات الأقلّيات (أي الأشخاص الذين ليسوا في مناصب سياسية أو مالية أو عسكرية) ترتبط بتقليد القصة السردية الفولكلورية. في هذا التقليد، يُنظر بطريقة مختلفة إلى الفوارق بين الأنواع السردية مقارنةً بالتقليد الكتابي لدى الفئات المتعلّمة. ويصحّ هذا الأمر في حالة التمييز العام بين القصص «الفعلية» و«الفنية»، وبين «الأحداث» والوجدان أو الخيال. فتصوّر القصة كقصة «حقيقية» يرتبط بالأسطورة بقدر ما يرتبط بالتجربة الشخصية والذاكرة التاريخية، ولكن لا توجد أنماط شفوية رسمية مخصّصة لنقل المعلومات التاريخية؛ وغالبًا ما تتداخل القصص السردية التاريخية والشعرية والأسطورية. والنتيجة هي قصص تتلاشى فيها **الحدود الفاصلة** بين ما يجري في الخارج وما يجري داخل الراوي، وبين ما يتعلّق بالفرد وما يتعلّق بالمجموعة، مقارنةً بالأنماط الكتابية المعروفة، وبالتالي قد تختلط هذه «الحقيقة» الشخصية مع «الخيال» المشترك.

III. الأحداث والمعاني

الأمر الأوّل الذي يجعل من التاريخ الشفوي مختلفًا هو أنّه يُخبرنا عن معنى الأحداث أكثر ممّا يُخبرنا عن الأحداث نفسها. وهذا لا يعني أنّ التاريخ الشفوي لا يتميّز بالواقعية. غالبًا ما تكشف المقابلات عن أحداث مجهولة أو جوانب مجهولة لأحداث معروفة؛ فهي دائمًا تُسلّط الضوء على جوانب مخفية من الحياة اليومية لفئات الأقلّيات. من هذا المنطلق، المشكلة الوحيدة في المصادر الشفوية هي القدرة على التحقّق من المعلومات.

لكنّ العنصر الفريد والقيّم الذي تفرضه المصادر الشفوية على المؤرّخ/ة والذي تفتقر إليه المصادر الأخرى هو الذاتية لدى المتكلّم. فالمصادر الشفوية لا تُخبرنا ما فعله الناس فقط ولكن أيضًا ما كانوا يُريدون فعله، وما كانوا





ملحق ٨: ما الذي يجعل التاريخ الشفوي مختلفًا؟

جلسة: المصادر الشفوية مقابل المصادر المكتوبة

يعتقدون أنهم يفعلون، وما يظنون أنهم فعلوه الآن. قد لا تُضيف المصادر الشفوية الكثير إلى ما نعرفه مثلًا عن الكلفة المادية على العمّال والعمّالات نتيجة فرض إضراب، لكنّها تُخبرنا الكثير عن أضراره النفسية. يكشف تسلسل القصة أمورًا كثيرة عن علاقات المتكلمين/ات بتاريخهم.

تُعتبر الذاتية أساس التاريخ تمامًا مثل «الوقائع» الأكثر وضوحًا. فما يعتقد المخبرون (الرواة) هو بالفعل واقعًا تاريخيًا (ويعود ذلك إلى واقع أنهم يُصدّقون اعتقادهم) إلى جانب ما وقع فعليًا من أحداث. فعندما أساء العمّال في تيرني (بلدة في إيطاليا) ترتيب تسلسل حدث مهمّ في تاريخهم (مقتل لويجي تراستولي) من تاريخ وسياق إلى آخر، ليس هذا الأمر مصدر شكّ في تسلسل الأحداث الفعلي، بل يُجبرنا على تصحيح تفسيراتنا لمرحلة كاملة من تاريخ البلدة.

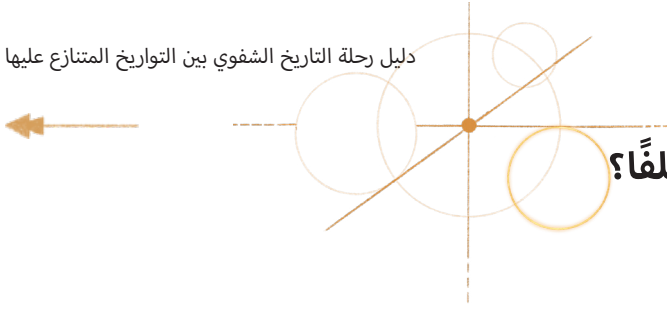
عندما اختلق قائدٌ جنديٌّ عادي في تيرني أيضًا قصةً عن كيف أنّه كان على وشك إقناع الحزب الشيوعي بتغيير استراتيجيته بعد الحرب العالمية الثانية، لا يؤدّي بنا هذا الأمر إلى إعادة النظر في الخطابات السياسية ضمن اليسار، لكننا نفهم مقدار الضرر الفعلي لبعض القرارات بالنسبة إلى الناشطين من الجنود العاديين الذين اضطروا إلى دفن احتياجاتهم ورغباتهم بالثورة في لاوعيهم. عندما نكتشف أنّ قصصًا شبيهة تُقال أيضًا في أجزاء أخرى من البلاد، نفهم أنّ عقدة الأسطورة غير المكتملة في «هلوسات» رجل عجوز خائب الأمل تكشف جوانب كثيرة عن تاريخ حزبه؛ جوانب لم تكشفها المذكرات الطويلة والمدروسة لقادته الرسميين.

١٤. الموضوعية

المصادر الشفوية ليست موضوعية. وينطبق هذا الأمر طبعًا على أيّ مصدر، مع أنّ قدسية الكتابة غالبًا ما تؤدّي بنا إلى نسيان ذلك. لكنّ الطابع غير الموضوعي المترسّخ في المصادر الشفوية يتمثّل في خصائص متأصلة محدّدة، وأهمّها الطابع المصطنع والمتغيّر والجزئي. تصف مقدّمة سيرة مالكوم أكس الذاتية *Autobiography of Malcolm X* بقلم أليكس هيلي كيف غيّر مالكوم نهجه السردي، ليس بشكل عفوي بل لأنّ أسئلة المُحاور أبعدهت عن صورته وصورة أمّة الإسلام الرسمية والعامّة الحصرية التي كان يُحاول إظهارها. وهذا يُبيّن أنّ مستندات التاريخ الشفوي تُعبّر دائمًا عن علاقة، عن مشروع مشترك يجمع المُحاور/ة مع الراوي/ة، حتّى لو لم يتمّ ذلك بأجواء من التناغم. المستندات المكتوبة ثابتة؛ وهي موجودة سواء أدركنا وجودها أم لم ندركه، ولا تتغيّر عندما نعثر عليها. أمّا الشهادة الشفوية فهي مورد مُحتمل فقط إلى حين أن يكتشفها الباحث/ة.

محتوى المصدر المكتوب مستقلّ عن حاجة الباحث/ة وفرضياته/ا؛ فهو نصّ ثابت لا يمكن إلاّ تفسيره. في المقابل، يعتمد محتوى المصادر الشفوية إلى حدّ كبير على ما تضيفه المُحاور/ة من أسئلة وحوار وعلاقة شخصية.





ملحق ٨: ما الذي يجعل التاريخ الشفوي مختلفًا؟ جلسة: المصادر الشفوية مقابل المصادر المكتوبة

الباحث/ة هو الذي يُقرّر إجراء المقابلة. وغالبًا ما يدخل الباحثون/ات تعديلات محدّدة: فيقول المخبرون (الرواة) لهم ما يعتقدون أنّهم يريدون سماعه وبذلك يكشفون عن هوية الباحث/ة بنظرهم. من جهة أخرى، في المقابلات المنظّمة، قد تغيب العناصر التي كان/ت المحاور/ة ت/يجهل سابقًا وجودها أو أهميتها، وبالتالي لم ت/يأخذها بالاعتبار في جدول الأسئلة. تميل هذه المقابلات إلى تأكيد الإطار المرجعي السابق للمؤرّخ/ة.

لذلك، الشرط الأوّل هو أن ت/يبادر الباحث/ة إلى «تقبّل» الراوي/ة وإعطاء الأولوية لما ت/يريد إخباره، بدلًا ممّا ت/يريد الباحث/ة سماعه، مع ترك أيّ أسئلة لم يتمّ الردّ عليها لوقت آخر أو لمقابلة أخرى. وعمليات التواصل تعمل دائمًا في الاتجاهين. فالرواة في المقابلة يُحلّلون المحاورين/ات دائمًا، ربّما بشكل مخفيّ، والمحاورون/ات «يحلّلون» الرواة أيضًا بدورهم.

النتيجة النهائية للمقابلة هي عمل مشترك بين الراوي/ة والباحث/ة. عندما يتمّ تنظيم المقابلات للنشر، كما يحصل غالبًا، مع إزالة صوت المحاور/ة تمامًا، يحدث تعديل طفيف: فيعطي النصّ الأجوبة من دون الأسئلة، ممّا يوحي بأنّ الراوي/ة ست/يقول دائمًا الأمور نفسها، مهما كانت الظروف. بمعنى آخر، يتكوّن الانطباع بأنّ المتكلّم/ة ثابت/ة ومتكرّر/ة تمامًا مثل النصّ المكتوب. عندما يتمّ اقتطاع صوت الباحث/ة، يصبح صوت الراوي/ة محرّفًا.

في الواقع، الشهادة الشفوية لا تُدلى مرّتين بالطريقة نفسها. وهذه خاصية من خصائص التواصل الشفوي بكلّ أشكاله، لكنّها تنطبق بشكل خاصّ على الأشكال التي لا تعتمد هيكلية محدّدة نسبيًا، مثل التصريحات عن السيرة الذاتية أو التصريحات التاريخية في مقابلة معيّنة. حتّى المحاور/ة نفسه/ا ت/يحصل على نسخ مختلفة من الراوي/ة نفسه/ا في أوقات مختلفة. وكلّما تعرّف الطرفان أكثر على بعضهم، تراجع مقدار «الحدز» لدى الراوي/ة.

وواقع أنّ المقابلات مع الشخص نفسه/ا قد تواصل إلى ما لا نهاية يؤدّي بنا إلى مسألة النقص الكامن في المصادر الشفوية. فمن غير الممكن أن نُفرّغ تمامًا ذاكرة الشخص؛ فالبيانات المستخرجة من كلّ مقابلة تأتي دائمًا نتيجة مجموعة من البيانات المختارة على ضوء العلاقة المتبادلة. لذلك، الأبحاث التاريخية المأخوذة من مصادر شفوية تتخذ دائمًا طابع العمل غير المنتهي.

الطابع غير المُكتمل للمصادر الشفوية ينطبق على كلّ المصادر الأخرى. ما من بحث كامل إلّا إذا استنفد المصادر الشفوية والمكتوبة، وبما أنّ المصادر الشفوية لا تكتمل أبدًا، فمن المستحيل المرور على «كلّ» المصادر الممكنة. العمل التاريخي الذي يستخدم المصادر الشفوية لا ينتهي ولا يكتمل نتيجة طبيعة هذه المصادر؛ والعمل التاريخي الذي يستثني المصادر الشفوية (إنّ توقّرت) هو عمل غير مُكتمل بحكم تعريفه.

